

بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

تممة

كان ذلك منذ أشهر وكنت أحاضر جمهوراً من الأدباء بكلية
الليسيه بالاسكندرية ، وكان موضوع المحاضرة « الحياة الانسانية
بين قضاء وقدر الشرق ومذاهب الغرب في حرية الارادة » .
وقد جاء في محاضرتي كلام جيد عن الفروق بين أهل الشرق وبين
أهل الغرب ، لهذا رجعت وأنا أجول جولتي في كلام مناظري
الفاضل إليها آخذ منها لردى على المناظر ما أراه ذا صلة وثيقة
بالمسألة التي أثارها في العلم والثقافة
قلت في محاضرتي ما نصه :

(هنالك فرق أساسي في منطق التفكير بين الشرقي والغربي ،
وهذا الفرق ينتصر في أن الشرقي يبدأ بحثه من الوحدة التجلبي
حواله فينتهي للخالق ومنه للطبيعة . بعكس الغربي الذي يبدأ بحثه
من التناير الذي يكتنفه فينتهي للطبيعة ومنها للخالق)

هذا الفرق الشهود في أن الشرقي يبدأ من عالم الغيب لينتهي
للعالم المنظور ، بعكس الغربي الذي يبدأ من العالم المنظور
لينتهي لعالم الغيب — كان سبباً لظهور اللاهوت عند الشرقيين
والفلسفة عند الغربيين

وهذا التباين في منزع التفكير ذهب بالمقل الشرقي إلى
الاعتقاد بأن العالم حادث كما انتهى إلى أنه قديم عند الغربيين ،
ذلك أن الشرقي بدأ بحثه من الخالق فانهى كما انتهى متكلمة
المسلمين إلى أن العالم حادث وأن الخالق مطلق التصرف في الكون
منفصل عنه ومدبر له ، وأنه السبب لكل ما يحدث والملة الأولى
والأخيرة لكل ما يكون وما سيكون ، بينما البحث عن التناير
الشهود في الكون يدفع بالأخذ بأساليب الاستقراء والمشاهدة
إلى جانب أسلوب الاستنتاج والنظر ، وهذا كله ينهي بالانسان
كما انتهى ، فكبرى الغرب إلى أن لكل حادث سبباً في الكون ،
وأن للعالم وحدته وانسجامه ، وأنه خاضع لنواميس وسنن
ناطقة لا تتغير لافي الزمان ولا في المكان ، فإذا انتهى إلى الله

قيده بهذه السنن والنواميس ، وتصبح بذلك إرادة الله مقيدة بنظام
هذا الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار

والانسان من حيث هو كائن في العالم المنظور ، فهو في نظر
الشرق خاضع لإرادة عليا ، هي إرادة الخالق الحرة ، هو الذي
يقضى فيكون ويقدر فيحدث . وهذه فكرة القضاء
والقدر عند الشرقيين ، فإذا قضى الله أمراً فلا مرد لقضائه ، وإذا
أراد شيئاً قال له كُن فيكون . غير أن الإرادة الإلهية لا تتعلق
بالأمور التي قضى بوقوعه إلا إذا تعلقت به إرادة الانسان
المخلوق الذي وهبه الخالق حرية الارادة ، في أن تتعلق بالأشياء
فكان للانسان اختياراً ، غير أنه عند النظر مقيد بالعالم الإلهي
الأزلي وبتملق الإرادة الالهية لترجع

أما في نظر الغربي فالانسان وإن كان يتبع في تصرفاته
وسلوكة نواميس الحياة ويخضع لها ، فإن في قدرة الانسان تغيير
المقدر له عن طريق معرفة النواميس المتحركة في وجوده والعمل
على إيجاد الملائمة بين حاجات الانسان في الحياة ومطالبه في
الوجود ، وبين المقدر له عن طريق تغييره بتكافؤ وصالحه

وخلاصة القول أن في الشرق استملا ما محضاً للغيب ، وفي
الغرب نضالاً محضاً مع قوى الغيب ، وبين منطق الغرب وروح
الشرق تسير البشرية في قافلة الحياة

هذا الكلام الذي تلخصت فيه في ختام محاضرتي كل ما قلته
في ذلك المساء ، أجده بليغاً في الرد على مزاعم مناظري الفاضل .
وخشية أن يقف بعض الناس عند ظاهر هذا القول فلا يتولون
إلى أغواره القصية ، أحب أن ألفت أنظارهم إلى أشياء .

١ — إن ما نمنيه باصلاح الشرق والغرب لا يقوم على أساس
من تقسيم العالم إلى شرق وغرب في تقويم البلدان ، إنما ترجع
الفرقة عندنا إلى ما نلسه من طابع ذهني للغرب ومنزع ثقافي
للشرق ، على اعتبار أن هذا الطابع عام للغرب وذلك المنزع عام
للشرق . غير أن هذا لا يمنع أن نجد مجتمعاً غريباً بنزع منزع
الذهن الشرقي في قلب أوروبا في زمن من أزمنة التاريخ نتيجة
لغلبة الطابع الشرقي لأسباب خارجية وطائرة على المحيط الاجتماعي
والبيئة الطبيعية ، فمثلاً يمكننا أن نقول إن طابع التفكير في
القرون الوسطى في أوروبا كان شرقياً في العموم لغلبة المنزع الشرقي
على الطابع الغربي نتيجة لبلوغ المنزع الشرقي شفاف أوروبا
وغزوها الغرب مع الدين المسيحي

الحساب، ذلك أن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة الصبر والأمل في النفوس يوم قالوا للناس لا تنهالكوا على الأرض ، ليست الأرض كل شيء . إن هنالك شيئاً آخر غير الأرض يدخل في التوزيع)

وليس من شأني هنا أن أردّ على الأستاذ الحكيم آراءه وأقول له بأننا مادمننا في الحياة فيجب أن نعمل من أجلها ومن أجلها وحدها ... اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وإننا إذا لم نحل مشاكنا على هذه الأرض فلن نحلها في وقت من الأوقات ولن نحلها

ليس هذا ما يعنيني ؛ أما الذي يعنيني من هذا الكلام أن أستوضح الفرق وأستبينه بين منطق الغرب الانبائي وروح الشرق النبوي بملاحظة أن المنطق العربي ينظر للحياة الانسانية كما هي ، وعن طريق العقل وحده يحاول معرفة حقيقته وتنظيم الصلات بين أفراد المجموع البشري . بعكس الذهن الشرقي الذي يدخل عنصراً غيبياً في الحياة الانسانية ، وعن طريق هذا العنصر النبوي يحاول تفسير الحياة وتنظيم الصلات الانسانية وإقامة العلاقات بين أفراد الهيئة الانسانية

ولنا أن نخلص من هذا كله بأن الثقافة الغربية إنسانية وأنها انتمت إلى المرحلة الأخيرة من مراحل التفكير الانساني الذي كشف عنه أوغست كونت ، بعكس الثقافة الشرقية التي وقفت عند حدود المرحلة الثانية حيث يمتزج فيها العالم المنظور بعالم ما وراء المنظور

وإذن من الخطأ التفريق بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم الوضعي باعتبار أن الثاني عام والأولى خاصة كما يريد أن يثبت مناظري الفاضل ، والصحيح أن يقال إن العلم الوضعي رغم أنه عام يقوم بمنهجه الثقافي ، وإن العلم يتلون (بروح الأمة) وهذا ما نلصه نحن المشتغلين بمسائل العلم من قيام مدارس علمية في أمم متباينة الروح فتخرج متباينة المذاهب والطرائق والاتجاهات ؛ ولا أدل على ذلك مما نراه من مدارس في العلم ، كل تحمل اسم أمة بينها . مثال ذلك المدرسة الألمانية والمدرسة الفرنسية في الرياضيات والطبيبات وبقية فروع العلم مما يعرفه كل من درس العلم في أوروبا في جامعاتها الكبرى

٢ - إن هذا المنزع الثقافي والطابع الذهني لكل من الشرق والغرب إذا اعتبرناه . من الخصائص الأولية لشعوب الشرق والغرب ، فذلك لا يرجع لعمامل بيولوجية أو انثروبولوجية كما حاول أن يثبتها بعض مفكرى القرن التاسع عشر ، إنما هي ترجع لأسباب طارئة على المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية فهذا لا يرد علينا بما كتبه الناظر في الرد على غوبنيو

٣ - إن الفلسفة الاسلامية التي ظهرت على يد الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم من أعلام الفلسفة الاسلامية ليست شرقية الروح لأنها وليدة الفلاسفة اليونانية والمنطق اليوناني . ويمكنك بكل سهولة أن تنزل بخطوط فلسفة فلاسفة الاسلام لأسولها عن أفلاطون وأرسطو وفلاسفة الاسكندرية من الأفلوطينيين ، فمن هنا لا يعترض علينا بأن هنالك من الفلاسفة الشرقيين من علقوا إرادة الخالق بسنن الوجود وقوانين الكون كذلك لا يعترض علينا بالجانب العلمي من الثقافة الاسلامية لأنها نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني

هذه أوليات ألفت إليها الأنظار حتى أكنى نفسى مقدماً الرد على ما سينار حولها من رد وجدال

قد يكون من الأهمية في مكان أن أستطرد قليلاً هنا وأنتقل بعض فقرات من الأستاذ الحكيم استشهد بها على صحة ما أرى من الفرق بين منزع الفكر الغربي وطابع الذهن الشرقي يقول الأستاذ توفيق الحكيم :

(إن الشرق قد حل ممضلة وجود أغنياء وفقراء وسماء وتمساء على هذه الأرض في يوم ما ، هذا لا ريب فيه . إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء فأدخلوا في القسمة مملكة السماء ، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس الأرض والسماء معاً ، فن حرم الحظ في جنة الدنيا حقه محفوظ في جنة السماء . هذا جميل . ولو استمرت هذه البادى وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما أغلى العالم كله في هذا الأنون المضطرم) (إن مذاهب الغرب حينما نزلت الميدان تحاول إصلاح الحياة ألفت قبلة المادية والبضاض والهفة والمجلة بين الناس . لقد أفهمت الناس أنه ليس هنالك غير الأرض ، يوم أخرجت السماء من

قلنا هناك ما نصه :

« قامت المدنية الرومانية على تراث الاغريق ، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوي والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها ومثلتها ، وكان في هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بمض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية ، ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفسير صرنة بطبيعتها غير حاملة في طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة ، لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائع التي هبت بها على أوروبا ... ولقد نضب معين مدينة روما لعوامل داخلية فهاجما البربر من الجرمان والصقل والسلاف والمون ، وسقطت إمبراطورية الرومان على ضفاف التبر ... فكانت عصور ظلام في أوروبا ؛ غير أن الشعوب البربرية التي ورتت إمبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان الادارية وعاداتهم ، ولم يعد ما أحدثه البرابرة في أوروبا سوى القضاء على التجارة الواسعة النطاق وعلى الادارة العامة ، وبذلك قامت بيوتات تجارية صغيرة تستطيع كفاية أهلها بمنتجاتها ، فكان ذلك مقدمة للمهد الاقطاعي . وهكذا قدر لهؤلاء البرابرة أن يركزوا الحياة الاقتصادية في العمل الصنيري ، وبذلك وضعوا النواة لمهد الانتاج الصناعي ثم طفت موجة العرب على الغرب ... غير أن التبريين نجحوا في وقف الموجة العربية عند ما تفاقم أمرها ... وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كنجاح الاغريق على الفرس سبباً في إيقاظ العقلية الغربية من طغيان روح النسك الآسيوية ... في ذلك الوقت كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسي الذي قام بروما رقيقاً على النفوس والمقول محلاً بكل سيئات روح النسك الآسيوية ... غير أن العقلية الجرمانية لم تر في رقابة روما وتسلط البابا إلا روحاً آسيوية بعيدة عن طبيعة الدهن الغربي ، فعملت كل الجهد في تقطيع أوصالها ، وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الدهنية الجرمانية الخالصة ممثلة المتلية الأوربية وبين العقلية البابوية التي تحمل في طياتها شيئاً من روح النسك الآسيوية ... في ذلك الوقت شق لوثر طريقه وكان عصر الإصلاح الديني وعهد الاحياء الفكري »

إذا صح ما ذكرته كله ولا إخاله إلا صحيحاً - فنن المجيب أن يناقشنا الأستاذ فليكس فارس الرأي فيما قلناه من كون الثقافة الشرقية ذاتية بكلام بلقيه على عواهنه دون أن ينظر إلى ما قدمناه من أدلة استفاضت بها كلتنا التي أدلينا بها في مناظرتنا معه والتي شملت أكثر من ثلاث صفحات من النص الذي نشرته (المجلة الجديدة) . ومع ذلك أحب أن أنظر في كلام مناظري الفاضل ، وأول شيء أسه أنه يعترف ضمناً بما نقول حيث كتب يقول :

(ومما يجدر ذكره هو أن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يعززون به تفكيرهم العلمي لم تسهم الثقافة اليونانية ولا حضارتهم الأدبية إذ أحسوا ما بين الحضارة التي كانت تتمخض في شعورهم وتقديرهم للحياة وبين حضارة اليونان الاجتماعية من مهاد سحيق فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظم اجتماعهم لذلك لا نجد في شعر العرب شيئاً من إبهام بيندار وأوربيد وهوميروس)

وأنت ترى مناظراً يعترف بأن العرب لم يتقبلوا تراث اليونان الأدبي ، لوجود مهاد سحيق بينهم وبين ثقافة اليونان التقليدية التي احتضنها روح اليونان ، وهذا ما نقوله ونشرحه بأن ثقافة العرب ذاتية وأن الثقافة موضوعية عند اليونان . ولهذا ان نجد في الأدب العربي شعراً قصصياً ولا شعراً تمثيلاً ولا شعراً تصويرياً لأن القصص والتمثيل والتصوير يستلزم الانسحاب من آفاق الذات إلى رحاب الموضوعية ، وليس هذا في مكنة الدهنية العربية كما شرحنا ذلك في توطئة كتابنا « الزهاوي الشاعر » الذي صدر منذ عام وفي دراستنا الانجليزية لشعر الدكتور أبو شادي

يتساءل مناظري بمد ذلك أين كانت العقلية الغربية قبل عصر النهضة - الرينسانس - أيام كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة ، ويسبقنا بالجواب فيقول : إنهم كانوا يفتنون في نومهم ، ولم تزل تراود أحلامهم الآلهة التي خلقتها عقلية التعاون فيهم ، فبلغ عدد هؤلاء الآلهة ثمانية آلاف في الأساطير . وأقول أنا رداً عليه : إنه لو قلب وجوه النظر في ما أدليت به في مناظرتي ما يجده منشوراً بالمجلة الجديدة ، فانه ليجد الجواب موجوداً على ما أراد ، وإذا أراد أن تنقل له الكلام بحرفه نقلناه